

الكتاب الثالث: " عن الحرية والجنون والإبداع " ( الحلقة الثالثة )



نشرة " الإنسان " 2019/09/21

السنة الثانية عشرة - العدد: 4403

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

[yehiatrakhawy@hotmail.com](mailto:yehiatrakhawy@hotmail.com)

- ماهية الإرادة

على غير ما يشاع في عابر القول ومتعجبه، يجدر التنويه إلى أن الحرية، على الرغم من ارتباطها الوثيق بما هو إرادة، وما هو اختيار واع بين بدائل متاحة، فإنها (الحرية) ليست مرادفة تماما لا للإرادة ولا للاختيار الواعي، وإن كانت أقرب إلى الاختيار منها إلى الإرادة.

نبدأ بالتذكرة بالقول:

"إن الإرادة دائما نسبية، وإن نموها مثل سائر الوظائف النفسية، يتناسب تناسباً طردياً مع مسيرة التكامل، أي مع المساحة من النفس التي تعمل "معاً"، أي مع مدى الترابط وعمق الولايف المتصاعد، ومستواه".

من هذا المنطلق علينا أن نراجع المزاعم التي تشير إلى واحدية الإرادة من جهة، وإلى اختزالها إلى ما يخص الوعي الظاهر أو القرار السلوكي من جهة أخرى. إن هذه المراجعة لا ينبغي أن تنفي التداخل (لا الترادف) مع الاختيار الواعي، والقرار المعلى.

الإرادة و "الآخر" (الموضوع)

لا توجد إرادة بالمعنى الحقيقي إلا في حضور "آخر" موضوعي مائل في مواجهة الوعي الفردي (بمستوياته المتعددة). إن الاختيار الحقيقي لفعل الإرادة (الحرية) لا يكون في فراغ. يسرى هذا حتى على من يعلن حرته بانسحابه عن "الموضوع" (الآخر/الواقع) كلية، مثل الفصامي (السلبي) الذي يبدو وكأنه قد تنازل في واقع الأمر عن حقه في أن تقيّم اختياراته بميزان حضور الآخر في وعيه، إلا أن النظرة التالية تظهر كيف أن الآخر (الواقعي) قد حضر عند الفصامي بشكل لم يقبله احتجاجاً، فاحتد عليه انسحاباً، وهذا نوع من "تأكيد الحضور بالغياب، فالتغيب"، بما لا يتنافى مع فرضنا الأساسي الذي يشير إلى أن المجنون (بدءاً بالفصامي) قد اختار أن يسلب نفسه حق الاختيار.

البارنوي (المجنون) الذي أُلّف لنفسه عالمه البديل عن "الآخر" (الواقعي أيضاً)، أو اختزل الآخر إلى مصدر تهديد أو وعيد، باعتباره خطراً على تفرد، هو أيضاً يمارس إرادة جزئية ذاتية منغلقة حتى لو تجلت في أفعال توحى باختيار حاسم يؤكد استبدال الآخر بآخرين من صنعه، وهم عادة ملاحقون مطاردون له، معقبون على أفعاله، موجهون لسلوكه، برغم أنهم ليسوا إلا بعض داخله.

تتجلى الإرادة الحقيقية المرتبطة تمام الارتباط بحضور الآخر في الخارج وفي الوعي في موقف

(مأزق) الاكتئاب الأصلي (البيولوجي/المواجهي) (\*)

أن الحرية، على الرغم من ارتباطها الوثيق بما هو إرادة، وما هو اختيار واع بين بدائل متاحة، فإنها (الحرية) ليست مرادفة تماما لا للإرادة ولا للاختيار الواعي، وإن كانت أقرب إلى الاختيار منها إلى الإرادة.

"إن الإرادة دائماً نسبية، وإن نموها مثل سائر الوظائف النفسية، يتناسب تناسباً طردياً مع مسيرة التكامل، أي مع المساحة من النفس التي تعمل "معاً"، أي مع مدى الترابط وعمق الولايف المتصاعد، ومستواه".

لا توجد إرادة بالمعنى الحقيقي إلا في حضور "آخر" موضوعي مائل في مواجهة الوعي الفردي (بمستوياته المتعددة)

(\* ) "الاكتئاب البيولوجي المواجهي" هو مصطلح صكه المؤلف من خلال فرض يحاول التحقق من صحته خلال سنوات خبرته الإكلينيكية، وهو يعتبر هذا النوع الذي أسماه بالإنجليزية Biological Confronting Depression وبالعربية المصرية الفصحى/العامة "الحزن الحقيقي"، وهو يختلف كل الاختلاف عن الاكتئاب بمعناه المرضى، وعن "الزهق" بالعامة، وعن الغم، وعن الضيق، مما لا مجال لتفصيله. هذا الحزن الحقيقي- من خلال هذا الفرض - هو جزء لا يتجزأ من مظاهر وضرورات العلاقة بالموضوع بالمعنى الذي شرحته مدرسة التحليل النفسى الإنجليزية (جانتر بوجه خاص) ، باعتبار أنه يعلن صعوبة العلاقة بموضوع (آخر) حقيقى مستقل لا مفر من صحبته برغم صعوبة استقباله بما هو. وسوف نتناول كل ذلك فى عمل مستقل نرجو ألا يطول انتظاره، هذا علما بأن إرهافات هذا الفرض ظهرت فى فكر المؤلف من قديم.

حضور "الأخر". فى الواقع والوعى معا- بكل موضوعيته وتحدياته هو المسئول عن ظهور هذا النوع من الاكتئاب بشكل أو بآخر، ذلك أن: المريض المكتئب يختار أن يحافظ على علاقته بالآخر، لا ينسحب من مواجهته، ولا يلغيه، ولا يستبدله، ولكى يحقق ذلك فإنه يختار "المجال" الذى يحافظ على هذا الوعى وهو "واقعية العلاقة"، وهو إذ يفعل ذلك يجد أن عليه أن يتحمل الوعى بكلية الآخر وبمخاطر الاقتراب منه مختلفا ككل موضوعى، وفى نفس الوقت هو يفعل ذلك دون يقين باستمرار هذا الحضور، فيعاش احتمال أن يهجره هذا الآخر طول الوقت، فيتولد هذا الاكتئاب الحيوى الذى يعلن حركية الإرادة بشكل عميق متجدد. الوعى بالآخر . كموضوع حقيقى . مع اختيار الاستمرار معه دون اختزال أو إجمال: هذان هما العاملان الأساسيان اللذان يولدان هذا الحزن الأساسى (كما خلقنا به - "خلقة ربنا" حسب التعبير المستعمل لإثارته فى المقابلة الإكلينيكية) (\*).

(\* ) فى تعاملنا مع هذا الحزن فى الموقف الإكلينكى يطلب الطبيب (المعالج) من المريض أن يسمح لحزنه أن "يحضر"، دون الإسراع بربطه بسبب معين، وأن ذلك هو ضمن "حقه الطبيعى فى هذه المشاعر" الحزن، ويُستعمل تعبير "خلقة ربنا" هكذا ببساطة، وكثيرا ما يتم ذلك دون كلام بالألفاظ، بالصمت المتبادل، لفترة تطول أحيانا عشرات الدقائق، وبعد الاستغراب والمقاومة، يعيش المتقابلان (الطبيب والمريض)، ما يشعران به أن ثمة فطرة طبيعية (خلقة ربنا) تحضر فى شبكية العلاقة الحوارية دون ألفاظ يغلفها شعور عميق بالألم النفسى "البناء" الصعب المثار عند الأثنين معا إعلانا لموضوعية المحاولة. نفس هذا الحزن هو الذى يتم تحريكه بشكل آخر فى سياق العلاج الجمعى، كعلامة على استعادة، أو بدء عمل علاقة بآخر حقيقى (مما سيفصل فى موضع آخر).

كُلٌّ من الوعى بالآخر مستقلا وموضوعيا، مع قرار الاستمرار فى مواجهته دون اختزاله أو الاكتفاء باستعماله، هما العاملان الأساسيان اللذان يسعى إلى تحقيقهما العلاج النفسى، وخاصة العلاج النفسى الجمعى، وهو الذى وصفته تحديدا بتعبير "إحياء دياكتك النمو (2) حيث يهدف هذا العلاج إلى تنمية الوعى ليس فقط بالآخر كموضوع شخصى، وإنما بالجانب الآخر من كل قضية، ومن كل موضوع، ومن ثم الوعى بـ "كلية الآخر" مع تحديات تحمل الغموض ، ومن ثم : تنشيط الجدل.

### - تشكيلات الحرية:

إذا لم تكن الحرية هى مجرد الاختيار الواعى فى عالمنا الظاهر، ولم تكن مرادفة تماما للإرادة كما بيتا، فما هى المقومات الحقيقية لحرية.

أولا: على مسار التطور والنمو،

وثانيا: كما نكتشفها فى فعل الجنون،

وثالثا: كما تحضر فى فعل الإبداع، وأحيانا: فى حالة العادية؟

البارنوى (المجنون) الذى ألوه لنفسه عالمه البديل عن "الأخر" (الواقعى أيضا). أو اختزل الآخر إلى مصدر تهديد أو وعيد، باعتباره خطرا على تفرد، هو أيضا يمارس إرادة جزئية ذاتية مغلفة

الاكتئاب البيولوجي المواجهي هو مصطلح صكه المؤلف من خلال فرض يحاول التحقق من صحته خلال سنوات خبرته الإكلينيكية، وهو يعتبر هذا النوع الذى أسماه بالإنجليزية Biological Confronting Depression وبالعربية المصرية الفصحى/العامة "الحزن الحقيقي"

حضور "الأخر". فى الواقع والوعى معا- بكل موضوعيته وتحدياته هو المسئول عن ظهور هذا النوع من الاكتئاب بشكل أو بآخر

أن: المريض المكتئب يختار أن يحافظ على علاقته بالآخر، لا ينسحب من مواجهته، ولا يلغيه، ولا يستبدله، ولكى يحقق ذلك فإنه يختار "المجال" الذى يحافظ على هذا الوعى وهو "واقعية العلاقة"،

يعايش احتمال أن يصبره هذا  
الأخر طول الوقت، فيتولد  
هذا الاكتئاب الحيوي الذي  
يعلن حركة الإرادة بشكل  
عميق متجدد

الوعي بالأخر . كموضوع  
حقيقي . مع اختبار الاستمرار  
معه دون اختزال أو إجمال:  
هذان هما العاملان الأساسيان  
اللذان يولدان هذا الحزن  
الأساسي (كما خلقنا به -  
”خلقة ربنا“

أن ثمة فطرة طبيعية (خلقة  
ربنا) تحصر في شكية العلاقة  
الحوارية دون ألفاظ يغلفها  
شعور عميق بالألم النفسي  
”البناء“ الصعب المنار عند  
الأثنين معا إعلانا لموضوعية  
المحاولة

هذا الحزن هو الذي يتم  
تحريكه بشكل آخر في سياق  
العلاج الجمعي، كعلامة على  
استعادة، أو بدء، عمل علاقة  
بأخر حقيقي

أن مفهوم “العادية” بوجه  
خاص ليس مرادفا للصحة ولا  
للشخص العادي، وإنما  
العادية هي حالة متبادلة مع  
حالتى الجنون والإبداع

نحن نواجه الحرية، نعيشها، نواكبها على مستويات مختلفة وبمظاهر متعددة، ليست متافرة،  
ولامتعبدة إحداهما الأخرى، ومن ذلك:

(1) على مسار النمو النوعي، والنمو الفردي، يحضرنا فعل الحرية كثيرا بأثر رجعي، وذلك حين  
نعيش آثارها في لحظة التغيير النوعي الذي يشير بدوره إلى طفرة الولايف الناتج عن التراكم المتضفر، إذ  
هو تراكم يعلن في النهاية ولاف اختيارات متعاقبة لم تعلن (وما كان يمكن أن تعلن) في حينها. إن هذا  
مرتبط بأن الاختيار الأهم هو اختيار المجال وفرص الحركة، وكلاهما يسمح بناتج معين يصبح وكأنه  
المعنى بالاختيار في النهاية، إذن فالاختيار ليس فعلا بسيطا مرتبطا بتفضيل بديل بذاته بين البدائل  
المطروحة حالا، ولكنه في عمقه ليس إلا: إعلان عن اختيارات سابقة تراكمت فأعلنت في اختيار أخير  
ظهر على السطح.

(2) إن ثمة حرية تعلن إذ تواكب انبعاث الوعي في مواجهة إعادة النظر في زحمة المعلومات في  
الداخل (والخارج)، ويتمثل مثل ذلك في الإعلان المصاحب لأعراض مثل: خبرة تغيير الذات (لست أنا  
هوأنا) أو تغيير الواقع من حوله (ليس العالم/الواقع/ الناس هم نفس ما كانوا، ليسو هم)، ”تغيير الناس،  
ليسوا ناس الأمس“، إن وعى الشخص بأنه ”ليس هو“ أو أن الواقع قد تغير هو عرض يشير إلى  
اكتشاف اختيار سبق تحديده، هو اختيار السماح لحالة من ذواته الأخرى أن تشارك في وساد الوعي  
الظاهري، أن تشارك في عملية الإدراك الواعي، ثم جاء هذا العرض ليعلن تحقق هذا الاختيار، ولو  
جزئيا.

(3) ثمة حرية تُفعلن في فعل حاضر مسئول مخترق يغير الواقع الفعلي إلى أحسن، عادة بواسطة  
اختيار تمارسه جماعة مسئولة، وهذا ما يطلق عليه أحيانا صفة ما هو ”ثورى“، باعتباره الناتج الإيجابي  
لوعى جماعى مغامر يتبنى تنفيذ طفرة نوعية محددة.

(4) المجنون، كما ذكرنا، مثله مثل الثائر والمبدع، يمارس حرية حقيقية، لكنها حرية خاصة تماما  
سبق أن تناولناها تفصيلا حتى نهاية تنازله عنها بها، ونضيف هنا أنه أيضا يتغير تغيرا كفييا نتيجة  
اختيارات سابقة ومتلاحقة، ففي البداية يحتد وعيه حتى يرى الداخل رؤية أكثر حدة ونشاطا، فيواجه  
الخارج بعديد من الأساليب حسب نوع الجنون، بما يشمل الاقتحام، والإلغاء، والإسقاط، والمواجهة  
(غيرالمسئولة)، وهو يتصور (بشكل غير واقعي) قدرته على اقتحام التناقضات وإعلانها، بل وقبولها جزئيا  
(رغم عجزه اللاحق)، ثم هو يقذفها في وجه من ينكرها (من السادة الأسياء)، وهو يخترق كل المألوف  
تحطيمًا، ثم يتركه انسحابا بانفاعة منفردة وقادرة على أن تبقى وتحميه في موقفه/موقعه الجديد. إن هذا  
الفضل الأخير هو الذى يجهض حقه في احترام اختياره، وهو أيضا ضمن صفقة حرية المجنون، والذى  
يتقبله المجنون ويمارسه ويدفع ثمنه بقدر ما هو اختياره، وقد فصلنا الأمر في البداية أكثر.

(5) سبق أن ميزنا بين أشكال الإرادة بما يتماس مع مفهوم الحرية في الفصل السابق فيما يتعلق  
بالمقارنة بين ”حالات الوجود“ المتناوبة: وذلك في كل من: حالة العادية وحالة الجنون وحالة الإبداع  
على الوجه التالى:

نؤكد هنا من جديد أن مفهوم “العادية” بوجه خاص ليس مرادفا للصحة ولا للشخص العادي، وإنما  
العادية هي حالة متبادلة مع حالتى الجنون والإبداع، وكذلك مفهومى الجنون والإبداع، هما صفتان لحالتين  
لنفس الشخص (أى منا) لا لشخص دون آخر، وكما أشرنا أيضا: يكون الإنسان صحيحا بمرونة التراوح  
بين حالات وجوده مع إيجابية الناتج على المدى الأشمل.

بدءا من هذا الفرض السابق يمكن التمدادى إلى فروض تكميلية تتاسب موضوعنا الحالى، بمعنى أن  
نبحث كيف يختلف مفهوم الحرية في كل من هذه الحالات (العادية، الجنون، الإبداع) باختلاف كل حالة.  
الفرض الحالى يطرح تصورا يقول إن للحرية مستويات متصاعدة ومختلفة في كل من هذه الحالات

الثلاث بشكل يحتاج إلى تفصيل يتناسب مع المداخلة الحالية للنظر في الإبداع من زاوية الحرية.

(ونكمل الأسبوع القادم)

[1] - هذا هو الكتاب الثالث باسم "عن الحرية والجنون والإبداع" نشرت صورته الأولى في مجلة فصول- المجلد السادس - العدد الرابع 1986 ص(58/30) وقد تم تحديثها دون مساس بجوهرها، وهو الفصل الثالث من كتاب "حركية الوجود وتجليات الإبداع" الصادر من المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة، والكتاب يوجد في طبعته الأولى 2007 وهذه هي الطبعة الثانية بعد أن قُسم إلى أربع كتب أضيف إليها ما جدُّ للكاتب بين الطبعتين، وهذا الكتاب هو الثالث.

[2] - يحيى الرخاوى: "مقدمة في العلاج النفسى الجمعى" دار الغد للثقافة والنشر 1987- القاهرة.

مفهومى الجنون والإبداع،  
هما صفتان لحالتين لنفس  
الشخص (أى منا) لا لشخص  
دون آخر

يكون الإنسان صحيحاً بمرونة  
التراوح بين حالات وجوده مع  
إيجابية الناتج على المدى  
الأشمل.

إرتباط كامل النص:

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD210919.pdf>

## شبكة العلوم النفسية العربية

نعو تعاون عربي رقيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

الكتاب السنوي 2019 1 " شبكة العلوم النفسية العربية " (الصدار السادس)

الشبكة تطفئ شمعتهما الثامنة عشر وتدخل عامها التاسع عشر من التأسيس

18 عاما من الضج... 61 عاما من التواصل "

( التأسيس: 2000/01/01 - على الويب: 2003/06/13 )

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>

## مؤسسة العلوم النفسية العربية

جائزة " قتيبة شلبي " لشبكة العلوم النفسية العربية للعام 2019

تتشرف شبكة العلوم النفسية العربية بإطلاق اسم:

" البروفيسور قتيبة شلبي "

( الطب النفساني، العراق / أمريكا )

على جائزتهما للعام 2019 المخصصة للأعمال العلمية في الطب النفساني

تقديرًا لمسيرته العلمية المميزة

واعترافًا لما قدمه من خدمات جليلة للطب النفساني الشرعي على المستوى العالمي

دعوة لتقديم الترشيحات للجائزة

الترشح للجائزة من بداية من 01 جانفي 2019 الى 30 نوفمبر 2019

شروط الترشح

[www.arabpsynet.com/Prizes/Prize2019/APNprize2019.pdf](http://www.arabpsynet.com/Prizes/Prize2019/APNprize2019.pdf)

ارتباطات ذات صلة

دليل جائزة شبكة العلوم النفسية على المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com/arabpsynet.php?p=2>

دليل جائزة شبكة العلوم النفسية على الفيس بوك

<https://www.facebook.com/Arabpsynet-Award-289735004761329/?ref=bookmarks>